ميشال شيحا والشعر

نُبذة من خلودٍ تَعْبُرُ المدى

قد نكونُ عرفناهُ مفكّراً أكثرَ من معرفتنا إيّاهُ شاعراً. وعندَها نقرأُ أثرَهُ الشعريَّ يتوفّرُ لنا برهانٌ جديدٌ على أنَّ شعرَهُ كان قطعاً مُنبثقاً من مقاطعِ فكرِه.

وقد نكونُ أقمنا للسياسةِ في حياتِهِ دوراً متقدّماً على دورِ الشعر. ولكنّنا، في التحليلِ الأوّلي، أمامَ سياسيٍّ شاعر، لا لأنّهُ كتبَ القصيدةَ وحسب، بل لأنّهُ يرى السياسةَ بدونِ شعرٍ جسداً مكتلاً بلا روح، والأوطانَ بدونِهِ واقعاً مريراً بلا حُلم، والنظريّاتِ والأفكارَ كؤوساً بلا زهر، والأرضَ أديماً بلا أعماق، والحكمَ تدبيراً بلا آفاق.

ألم يَقُلْ في الختامِ من مقدّمةِ ديوانِهِ الأوّلِ بالفرنسيّة

دير مار الياس انطلياس، الخميس ٢٠ شباط ١٩٨٧، عيد ندوة انعقدت عباسيّة لإعادة طبع مؤلّفات ميشال شيحا بالّلغة العربيّة، وبدعوةٍ من الحركة الثقافيّة - انطلياس ونادي القلم الدولي.

"بيت الحقول" (La Maison des champs):

"كلُّ حكمٍ بلا أُلفةٍ وبلا حُنانٍ فرأيٌ باتَ يجهل
حسناتِ الشعر. لو لَجَأَ إليه أكثر لشفاءَ لهمِّه
والتذمُّر. ولَمَا عادَ الأحياءُ يظهرون غالباً كأموات."

ألم يَقُلْ، يوم احتفى عبد قنال في جريدة (le Jour)
لوجهور، عام ١٩٥٢، بظهور ديوان "جلنار" لميشال
طراد:

"La poésie au Liban participe au besoin de liberté qui nous prend aux entrailles." (6/1/1952)

"الشعر في لبنان يشاركُ في بلورةِ تشوُّقٍ
إلى الحريةِ يسكنُ الجوارح."

ألم يَضَعِ الشعرَ في أساسِ كلِّ خلقٍ بشريٍّ:

"لا ابتكارَ بلا لونٍ من ألوانِ الشعر. ولا خيالَ
بعيدَ غايةٍ فيه." (المقدمة نفسها).

ألم تيلمّسِ الظواهرَ الأرضيةَ إلى زوالٍ باستثناء
ما ترسّخَ فنّيٌّ وما سما في آنٍ، كالشعر الذي
قال فيه هذا البيتَ المنظوم:

un peu d'éternité qui traverse l'espace.

"ضُمَّةً من خلودٍ تعبرُ المدى": (الديوان، ص ٤٤).

وعندما اخترتُ موضوعاً هو الشعر عند ميشال شيحا، أيقنتُ أنّ في وجوهِ شخصيته تداخلاً وتكاملاً عميقين، وأننا لا ننصفُ شعره إذا عزلناهُ عن مَنْماه السياسي، ولا ننصفُ سياسته إذا جرّدناها من آفاق الشعر: حيث الرؤيا والنقاء، والوجدانُ والصدق، وحيث لا يكونُ تدبيرُ شؤونِ الناس شدّاً لهم إلى المألوف والترتيب والترابي واليومي والمظلم والظلام والنزائل، بل فرصةً فاتحةً للانعتاق والتسامي والابداع، للمشاركة الحقيقية في وليمةِ الحياة، لاكتشافِ أنّ في عمقِ أعماقِ كلٍّ منهم نفساً شاعرةً أعطاها ربُّها أن تكونَ وتراً يغنّي ليغني ترنيمةَ الوجود.

١٩١٩

كانوا، في الشطرة الأولى من شطرتي هذا القرن، فرسانَ أربعة تكاتفت أعنتهم لتمتطي عربةً لها اسمُها ذو المدلولِ الواضح، ولها أفكارُها ورهاناتُها، ولها المناصرون والمناهضون.

كان شارل قرم مؤسسَ "المجلة الفينيقية" (La Revue Phénicienne)، وفعلَه ميشال شيحا

وإيلي تيان وهكتور خلاط .

وكان في طليعة رعائهم إحياءُ الإرث الفينيقي، والانضمامُ الى حضارة البحر، والانشدادُ الى فرنسا، وبلورةُ الخطّ الوطني اللبناني، والاعتمادُ على الاختبار التاريخي المثبت أنّ لبنان لم يكن عبر العصور أرضَ لغةٍ واحدة، واطلاقُ المواهب الجديدة بروحٍ لبنانيّة مشرقيّة وبريشةٍ فرنسيّة غربيّة، ورفعُ الابداع الى الدرجات الأعلى في سلّم القيم.

ورأى الترفاتُ يتساقطون واحداً تلوَ الآخر فجعل هكتور خلاط يتذكّر هذا البيت من الشعر لفيكتور هيغو:

Il regardait tomber autour de lui ses branches.

رأى (الشجرة) أغصانَها تتهاوى حولها.

وعندما سقط خلاط نفسُه (توفّي عام ١٩٥٦) هوى الفارسُ الأخير من فرسان المملكة الفينيقية، وانطوت معه آخرُ تذكاراتها وبقايا أحلامها المتبدّدة.

تلك الرهانات التي أثارت طائفةً منهم
جدلاً حاداً في مجتمعنا، كانت نقاط انطلاقٍ لا صولَ
لإحمالها في الطريق الذي سلكه نتاج الجماعة، جماعة
المجلة الفيزيقية. وتجارب الجماعات موفورةٌ
في التاريخ الشعري، وفي المعاصر من أدبنا العربي.
ولا نتوهمنَّ أن يتماثلَ المبدعون المنتمون إلى
حركةٍ ذات علاقة بالفكر والأدب والفن،
بل لا نبتغينَّ أن يرهنوا مواهبهم لرهنَ انقيادٍ
واستعباد. فإذا كان لكلٍّ من امتطى جواداً يعرفُ
نقطة الانطلاق، فليس من الإبداع بشيء أن
تكونَ نقطةُ الوصول واحدةً له ولسواه. والجوادُ
الأدبيُّ المبدع هو الجوادُ الجموح. ومن أدقّ ما يواجهُ
الكاتبَ الملتزم هو الفتحُ بين نار الجماعةِ ونور الذات.
والالتزامُ والإبداعُ في الأدب "كالنار والنور في
ظواهر الطبيعة. من مُضارّ النار أنها قد تتعدّى
الاشتعالَ إلى الإحراق. ومن مُضارّ النور
أنه قد يقفُ عند حدودِ البهاء يوم نكونُ بحاجةٍ
إلى الاشتعال" (كتابي من الشائع
إلى الأصيل، ص ٤١).

من إذاً ، وهذه المرّة أيضاً ، لا نفهم شعر فيشال كثيراً إذا عزلناه عن خطّ الجماعة ، ولكننا لا ننصفه إذا جرّدناه من خصوصيّاته. فما هي البارزة من هذه الخصوصيات ؟

١٩٩٩

طُبع "بيت القصيد" مرّة أولى عام ١٩٣٤، ومرّة ثانية عام ١٩٥٤.

في الطبعة الثانية إضافة من القصائد غير مندرجة في باب له عنوانه المستقلّ ، منها قصيدة "بيت القصيد" التي يغتني بها الشاعر مسكنه المعروف في منطقة "البرزة" من لبنان. يلي ذلك باب بعنوان "انطباعات باريسية". وآخر هو الأوسع والأعمق في الديوان بعنوان "الجهاد الجديد". وأخيراً انضمّ إلى الطبعة الثانية بعنوان "قصائد غير منشورة".

الدافع الأول في القصائد والطاغي طغيانه الذي لا يكاد يحسب حساباً لسواه ، هو نزعة تأمّلية تحمل من المنزوع الفكري ما يتجاوز أحياناً قدرة الشعر على احتماله. فشيئاً من حكماء الشعر، ومن الواضعين فوق طبقة الشعور طبقة من العقل

تضبط حركات القصيدة في إيقاعات كلاسيكية متزنة. الحفل الراقص هو في دار أمير. وليس العرس قائماً في ديار عنبرية، هي في المكان أكثر من كونها في مكانٍ بعينه، ولا قائماً في غابة يتسع دارها للإيقاع الحر والدار والقارئ:

في عُتبة الصحراء
في الصمت المتمرّن وبين الرمال اللاتناهية
تقوم هيبة الرمل وهيبة" لا تُبالي برفيقاتها
وتحتشد بتفاهة الجموع عنبر سائم الأشياء البائدة.

كلما فكرت بهيبة الرمل، وددت لو أكون وحيداً
في اضطراب الرمام الضخم والخاوي
فأنا نجيّ سلفٍ هوجلٍ في القِدم
أستشعر بدويّة الزمن المتصرم.
(الديوان، ص ٣٥).

الملمح الثاني أقرب إلى نسيج الشعر لأنه من ينابيع الغنائية التي طبعت على العموم شاعر شعراء هذه المنطقة في النصف الأول من القرن العشرين:

Quand il faudra partir pour l'ultime voyage
Mes yeux te reverront, comme maison des champs

حينَ لا مَفَرَّ من السَّفَرِ الأخير
أُمتِّعُ النَّظَرَ بكَ من جديد، يا بيتيَ الهادئ في الحقول.
(الديوان، ص ٥٥).

أو:

أعرفُ أنَّ عينيكِ القاتمتين كوهَيْنِ ظلال تشقُّهما إلى الليل
وأنَّ يديكِ عَرَفتا من مياهِ الصَّمتِ الصَّماء
أعرفُ أنَّ قلبكِ يخفقُ ليطردَ عنكِ الملال
ولهذا، أراني أتقدَّمُ إليكِ بتمهُّل.

يا طالما هدهدتُ الرُّعبَ، يا طالما رأيتُ الشمس
أنا الآن مَضَى أُريدُ شفتيكِ تنزعانِ إلى الصَّمت
وسماءً تستمرُّ موشَّحةً بخطوطِ اللونِ الرَّمادي
وصداقةَ الريحِ التي تنسجُ موسيقى الليلِ الشجيَّة.
(ذاته، ص ٣٥).

التزمت الثالثة الذي أكتفي بالوقوف عنده، وبالتسليم إليه، هو نفحة وقصيدة شرقيتان كانتا دائماً بطاقة الهوية اللبنانية العربية لشعر غادر أصحابه أرض لغتهم إلى أرض أخرى حاملين بعض التراب من ديار الآباء والأجداد.

"ما بعد المرئي"... يقول،

"راح القلب يتألم، لا العينان..."

(ذاته، ص ٦٨).

وفي قديم الزمان قال الشاعر العربي:

وتلفتت عيني، فمذ خفيت

عني الطلول تلفت القلب.

٦٦٦

وميشال شيحا اليوم...

بقي مفكراً، ويبقى. ما هم إن أشار طروحاته جدلاً. وإن لم نشاطره الرأي في بعضها.

وفي الشعر، ما حاله؟

إذا صح الحكم بكلمات، أقول:

لم تكمن ميزته الأساسية في إبداعه الشعري بقدر ما طرح أفكاراً كبيرة في الشعر، وبقدر ما أولى هذا الفن الأدبي من أهمية.

ولكنني أُضيفُ الآتي:

لقد جُعِلَ للشعر دورٌ في عقول الناس جميعاً. وكان من كوكبةِ العالمين، ومن دعاةِ الجمالِ المطلق. وتأثيرهُ النبيل، في هذا المضمار، سيظلُّ علامةً نهضة، واحتياجاً في وجهِ مَنْ فتحوا قلوبهم للأباطيلِ والضغائنِ والبشاعات.

٢٠١٦

غالب غانم

C4297